

الروائع المنوَّرة

من السِّيرة والشَّمائل النَّبويَّة المعطَّرة

(سيرته - فضائله - أوصافه - كمالاته ﷺ)

بقلم

صالح العود

مجاز في الشريعة من جامعة الأزهر

تقديم

فضيلة الشيخ محمد الحجّار

نزيل المدينة المنورة

دار البشائر الإسلامية



الرَّوائعُ المُنوَّرة

مِنَ السِّيرةِ والشَّمائِلِ النَّبويَّةِ المعطَّرة

سِيرتُه، فضائِلُه - أوصافُه - كمالاتُه ﷺ

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

الروائع المنورة

من السيرة والشمائل النبوية المعطرة

سيرته، فضائله - أوصافه - كمالاته ﷺ

بقلم

صالح العود

مجاز في الشريعة من جامعة الأزهر

تقديم

فضيلة الشيخ محمد النجار

نزيل المدينة المنورة

دار البشائر الإسلامية



تقديم

فضيلة الشيخ محمد الحجار

نزيل المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين . . .

والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد سيِّد الأوَّلين والآخرين . . .

ورضي الله عن صحابته الغرّ الميامين، وعن التَّابعين، وتابعي التَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وبعد:

لقد طلب منِّي مؤلِّف هذا الكتاب، أن أشاركه في هذا الحَقل العِلْمي، وقد ضمَّه معي اجتماعات في الحرم النبويِّ لمَّا كان طالباً في جامعة المدينة المنوَّرة ــ على ساكنها ألْفُ صلاةٍ وسلام ــ .

ففي هذه الصحبة وجدته منحرفاً عن غيره من الطلاَّب؛ من

حيث الأخلاق والاستقامة، والتمسُّك بالسُّنَّة النَّبويَّة، والطَّريقة المحمَّديَّة، وقد وافق اسمُه مسمَّاه، وعلمه يحمله.

ويُسْتَدَلُّ على ما قلتُ بكتابه هذا، الذي يُنبىء عن قوَّة كاتبه، ودقيق انتقائه فيما يتعلَّق بشمائل النَّبِيّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وحياته الشَّريفة، مِن حين النَّشأة إلى أن اختاره الله إليه، فكان مرقده الأخير في دار هجرته ﷺ.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام إمام الأنبياء، وسيِّد المُرسَلين، وأفضل خلق الله أجمعين.

وها هو إمام دار الهجرة سيِّدنا مالك رضي الله عنه لم يفارق المدينة بعد حجَّة الإسلام، حتَّى أكرمه الله تعالى بالموت فيها، وله آراء خاصَّة بفضل المدينة النبوية على غيرها...

ولذا أقول: الكُتَّاب والأُدَباء والعُلماء مهما بلغوا من القوَّة والبيان لا يستطيعون أن يخوضوا في البحر اللُّجِّيِّ، أو يعوموا فيه؛ لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام، لا يعرفه أحد من قريب أو بعيد إلَّا الذي خلقه وهو الله عزَّ وجلّ.

أقول ــ وأنا متحدِّياً النَّاس ــ: فمهما وصفه الواصفون أو مدحه المادحون، أو أثنى عليه المُثنون، فكلّهم على الشاطىء، وهذا أمر لا يحتاج إلى بيان...

وأخونا الشيخ الصَّالح مؤلِّف هذا الكتاب ــ حفظه المولى ورعاه، وجعله ممَّن اختاره واصطفاه ــ، أراد أن يُعَبِّر عن محبَّته

له عليه الصَّلاة والسَّلام، مُحَبِّباً المسلمين في البحث عن شمائله وبعض خصائصه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقد تناول بقلمه في هذا الكتاب موجزاً ومختصراً. . . فهو مأجور ومشكور؛ لأنَّ كتابه هذا يدفع القارىء إلى البحث في الموسوعات المتعلّقة بجنابه المنيف عليه الصَّلاة والسَّلام.

فاللهَ أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يكون نفعاً عميماً لكلِّ مسلم، وأن يتقبَّل عمل المساهم في نشره وطباعته.

في أواخر ربيع الثاني ١٤٢٧هـ

نزيل المدينة المنورة

محمد النجار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

الحمد لله الذي مدح رسولَه محمداً ﷺ، وأثنى عليه في كتابه العزيز بقَوْله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، والصَّلاة والسَّلام على الرحمة الْمُهداة، والصَّفوة المصطفاة، والسِّراج المنير، وعلى آله السَّادة الفضلاء، وأصحابه الأوفياء، إلى يوم الفناء(١).

أمَّا بعد:

فإنَّه لا يخفى على أحد، أنَّ كثيراً من المسلمين في عصرنا لا يُدركون من شمائل الرَّسول، ولا يعرفون من فضائله ﷺ شيئاً ذا بال؛ يَسْتَنُّون بها في شعائرهم الدينيَّة، ويهتدون بها في شؤونهم الدُّنيويَّة.

وكلمة (**فضائل أو شمائل**) تعني: أعمالَ الرَّسول المجيدة، وخصالَه الحميدة، وأخلاقَه الرَّشيدة التي كان

---

(١) كما قال تعالى في آية سورة (الرحمـٰن: ٢٦، ٢٧): ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾.

عليها ﷺ، سواء ما يتَّصل بِـ (**عبادته**) نحو خالقه عزّ وجلّ، أو بـ (**علاقته ومعاملاته**) مع سائر الخلق، إذ هو ﷺ الأسوة الحسنة في الدُّنيا، والقدوة الهادية إلى الجنَّة في الآخرة، كما قال تعالى في سورة (الأحزاب: ٢١): ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ وقال في سورة (الشورى: ٥٢): ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فحَرِيٌّ بالمسلمين أن يطَّلعوا على أحواله الشَّريفة ﷺ ـ الخاصَّة منها والعامَّة ـ؛ ليقتدوا به ويستمسكوا بهديه، ويزدادوا له حبًّا، ومنه قرباً، فإنَّ هذا هو (**لبُّ الإيمان**): كما جاء في حديث سيِّد ولد عدنان ﷺ عن أنس رضي الله عنه: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، والنَّاسِ أَجْمَعِين**»[1] متَّفق عليه.

---

(١) قال العلاَّمة المحدِّث عبد الرؤوف الْمُناوي في كتابه: «فيض القدير شرح الجامع الصَّغير» (٦/ ٤٤١): أي حبًّا اختياريًّا إيثاراً له ﷺ على ما يقتضي العقلُ رُجحانُه مِن حبِّه: احتراماً، وإكراماً، وإجلالاً.

وقال الإمام الكرماني: محبَّة الرَّسول ﷺ إرادة طاعته، وترك مخالفته، وهو من واجبات الإسلام. والحديث من جوامع الكَلِمِ، لأنه ﷺ جمع فيه أصناف المحبَّة الثَّلاث: محبَّة الإجلال: وهي محبَّة الأصل. ومحبَّة الوالد. ومحبَّة المجانسة: وهي محبَّة =

ولِـذا، فـإنَّ فضـائـل رسـول الله العميمـة، وشمـائلـه الكـريمـة، هـي ميـزةُ شخصيَّتـه العظيمـة: فـي (**الخَلْـق**) و (**الخُلُق**)[1].

وقد عظَّم الله تعالى (**فضله**) ﷺ فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]؛ وعظَّم (**خُلُقه**) فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]؛ وعظَّم (**حياته**) فأقسم بها وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهذا شاعر الرَّسول ﷺ: حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يمدحه بقوله:

خُلِقْتَ مُبَرَّءاً مِن كلِّ عيبٍ ... كَـأَنَّـكَ خُلِقْـتَ كَمـا تَشَـاءُ

وهذا إمام المديح: الشيخ محمد البوصيري يقول في قصيدته العصماء المسمَّاة بـ «البُرْدة»:

فَاقَ النَّبِيِّين في خَلْقٍ وَفي خُلُقٍ ... ولم يُدانُوه في عِلْمٍ ولا كَرَم

= النَّـاس أجمعيـن. وشـاهـد صـدق ذلـك: بـذْل النَّفـس فـي رضـا المحبوب، وإيثاره على كلّ مصحوب.

وقـال الإمـام النَّـووي: وفـي الحـديـث تلميـح إلـي قضيَّـة النَّفـس الأمَّارة والمطمئنَّة، فمَن رجَّح جانب المطمئنَّة: كان حبّه لنبيِّه راجحاً، ومَن رجَّح الأمَّارة: كان بالعكس.

(١) الخَلْق: الصّورة الظاهرة، والخُلُق: الطَّبع والسَّجيَّة.

ويقول الشيخ يوسف النَّبهاني في منظومته الفائقة «طيبة الغرّاء في مدح سيِّد الأنبياء»، والتي تُنِيفُ على ألف بيت، وقد وازن بها همزيَّة البوصيري:

أجملُ العالمين خَلْقا وخُلُقا ... مـا لـه فـي جمـالـه نُظَـرَاءُ

وأمَّا أمير الشُّعراء في عصره: أحمد شوقي فيقول في همزيَّته: «أُمّ القُرى في مدح خير الوَرى» التي عارض بها «بُردة» البوصيري:

زَانَتْـكَ فـي الخُلُـق العظيـم شمـائِـلُ
يُغْـزَى بهـنَّ ويُـولَـعُ الْكُـرَمَـاءُ

أمَّـا الجمـالُ فـأنـت شمـس سمـائـه
ومـلاَحَـةُ الصـدِّيـق منـك آيـاءُ[1]

هذا في شأن (**الخلق**).

أما في شأن (**الخُلُق**): فيقول تعالى في آية سورة (آل عمران: ١٥٩): ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾.

وتقول السَّيِّدة عائشة أمّ المؤمنين وزوج الرسول ﷺ ـ حين سُئِلَت عن خُلُقه ﷺ ـ : «**كَانَ أحسنَ النَّاس خُلُقاً**:

---

(١) آياءُ الشَّمس وآياتُها: نورها وحُسنُها.

كان خُلُقه القرآن، يَرضى لرضاه، ويغضبُ لغضبه، لم يكُن فاحِشاً ولا مُتَفحِّشاً، ولا صخَّاباً في الأسواق، ولا يَجزي بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ولكنْ يعفو ويصفح».

ثم قالت: «اقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى العشر الآيات[١]»، فقرأ السَّائل[٢]، فقالت: «هكذا كان خُلُقُه ﷺ»[٣].

لذلك حبَّرتُ هذه الصَّفحات النَّيِّرات، كعيِّنات من فضائله العظيمة، وشمائله الكريمة، لمسلمي عصرنا، وهي أكثر من ذلك، وقد وُضِعَت فيها كُتب متخصِّصة، تجد بعض أسمائها في صفحة التَّمهيد من هذا الكتاب.

---

(١) وهي قوله تعالى في سورة [المؤمنون: ١ ــ ١٠]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

(٢) هو: أبو عبد الله الجدَلي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحافظ ابن أبـي شيبة في مصنَّفه، وأصله في الصَّحيحين: البخاري مسلم.

وفي الختام، أسأل الله العليّ القدير، أن يُعمِّر قلوب عباده بحبّ نبـيّ الإسلام، فيُعطِّروا مجالسهم بذكره عليه وآله الصَّلاة والسَّلام، وأن يُعرِّف بسيرته وشمائله سائر العوام، ليهتدوا بها على مدى الدُّهور والأعوام، ويتحلَّى بها في الأقوال والأفعال جميع السَّادة الأنام، ما تكرَّرت الليالي والأيـام، وأن يُـوفِّـق منهـم مِـن يعلِّمهـا، أو يـدعـو إليهـا، أو يكتُب فيها[1]، مِن الرجال والنِّساء الأعلام.

وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكَّلت وإليه أُنيب.

تحريراً بمدينة باريس
صبـاح يـوم الأحـد
١ صفر الخير ١٤٢٥هـ
(٢١ مارس/ آذار ٢٠٠٤م)

صالح العود

---

(١) وقد وفَّقني الله ــ فله الحمد ــ إلى الكتابة فيها: ١ ــ «الخلاصةُ النَّقيَّـة للسيـرة النبـويَّـة»، ٢ ــ «سيـرة الـرَّسـول لـلأطفـال»، ٣ ــ «سيرة المصطفى محمد أعظم الرُّسُل»، وهذا الكتاب.
ووفَّقني أيضاً إلى تقديم برامج إذاعيَّة عديدة في: «السيرة»، و «الشَّمـائـل المحمَّـديَّـة»، و «الأحـاديـث النَّبـويَّـة»، و «تـراجـم الصَّحابة»، بلغَت خمسة عشَر برنامجاً.

تـمـهـيـد

مَعْنَى شمائلِ الرسول ﷺ

(الشَّمَائِلُ): تَعني: الخصال، والأخلاق، والأعمال، والعادات، التي كان عليها رسول الله ﷺ.

وهي جزء من سُنَّة النبي ﷺ؛ فقد عرَّف العلماء (السنَّة) بأنها: «**أقوال النبي، وأفعالُه، وأوصافُه، وتقريراتُه** ﷺ».

«ولقد دوَّن العلماء كتباً كثيرة في شمائله وأخلاقه ﷺ وذكروا فيها أحوالَه المتعلقةَ بعبادته، وأمرِه ونهْيِه، ويقظته ومنامه، ومشيه، وجلوسه، واتكائه، وصفة طعامه وشرابه، ومعاشرته لأهله وأصحابه؛ ووصفوا فيها سروره، وغضبه، وضحكه، وبكاءه، وصمته، ونطقه، وشجاعته، وصبره، وكرمه، وعفوه، وحياءه وتواضعه، وثيابه ولبسه، ووضوءه وغسله، وعيشه وهديه كلِّه»(١).

والكتب التي عُنِيَتْ بشمائله ﷺ كثيرة جدًّا، ومنها:

---

(١) «قبسات من نور النبوة» (ص ٨٩).

«**الخصائص الكبرى**» للإمام السيوطي، و «**الشّفا بتعريف حقوق المصطفى**» للقاضي عياض اليحصبي، و «**الشمائل المحمَّدية**» للإمام الترمذي، ولهذا الكتاب شروح عديدة، أعظمها شرحُ العلاَّمة القسطلاني: «**شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**»، و «**دلائل النُّبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة**» للحافظ البيهقي، و «**شمائل الرَّسول ﷺ**» للحافظ إسماعيل بن كثير، و «**الوفا بأحوال الْمُصطفى**» للإمام ابن الجوزي، و «**الرَّصف لما رُوِيَ عن النبي ﷺ مِن الفِعْل والوصف**» لأبي المكارم محمد العاقولي، و «**تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**» للديار بكري، و «**زاد المعاد في هدي خير العباد**» للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة، وغيرها.

ولا يَخْفَى على أحد أنَّ كثيراً من المسلمين لا يعرفون من شمائل الرسول الكريمة إلاَّ قليلاً، فَحَريٌّ بكل مؤمن أن يشتري كتاباً في شمائل الرسول، ليطَّلع على هدي رسول الله ﷺ وأحواله الخاصة والعامة، فيقتدي به فيما يأتي وما يذر، ولكي يزداد له حبًّا كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *




الفصل الأوَّل

التَّعريف الشَّريف بالرَّسول الْمُنيف ﷺ

* خلاصة السيرة العطرة.







خلاصة السيرة العطرة




* اسـمـه:

هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بن هاشم... من قريش، من عدنان، من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام... النبي العربي، أبو القاسم ﷺ.

وأمّه: (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف بن زهيرة.

وكل أجداده ﷺ من السادات الأشراف، ونسبه ﷺ من أشرف الأنساب، فما بعث الله نبيًّا إلاَّ في أشرف نسب.

* ولاداته وتسميته:

وُلِدَ سيدنا محمد ﷺ من أَبَوَيْنِ قُرَشِيَّيْنِ كَرِيمَيْنِ، بمكة المكرمة، في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأولَ من عام الفيل على المشهور عند الجمهور، الموافق لسنة **٥٧١** للميلاد؛ وهو العام الذي أغار فيه مِلِك الحبشة على مكة بجيش قوَامُه من الفيلة.

وكانت ولادته ﷺ في دار عمِّه أبـي طالب، في شِعْب بني هاشم، ثم سماه جده عبد المطلب «**محمداً**».

وكـانت **قـابـلـتـه**: الشَّـفَّـاء، أمُّ عـبـد الـرحـمـن بـن عــوف. وحـاضنتـه: أم أيمـن بــركــة الحبشيــة، أَمَـةُ أبيـه عبدِ الله.

* نـشـأتـه:

نشأ سيدنا محمد ﷺ يتيماً: إذ توفي أبوه عبد الله في المدينة المنورة وأمه حامل به ـ على القول الراجح ـ فربَّته أمه آمنة بنت وهب.

أقام محمد ﷺ في البادية أربعة أعوام، على عادة العرب «إذا وُلِدَ لهم وَلَدٌ أن يلتمسوا له مرضعة من البادية، ليكون أنجب للولد، وأفصح للسانه، ولينشأ قوي البنية سليم البدن». فكانت حليمة السعدية مرضعته حتى السنة السادسة من عمره.

وفي تلك السنة ذهبت أمّه إلى المدينة المنورة تزور به أخوالَه من بني النجار، فلما رجعت مرضت في الطريق وماتت، ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة. فكفله جدّه عبد المطلب، إلى أن مات بعد سنتين من كفالته إياه، فكفله عمه أبو طالب.

وكان محمد ﷺ يعمل في رَعي الغنم على سنَّة الأنبياء من قبل، تمهيداً لرعاية البشر، ثم عمل في التجارة في صحبة عمه أبـي طالب، فقد سافر معه إلى الشام، وسنه إذ ذاك اثنتا عشرة سنة.

كما اشتغل في تجارةٍ لخديجةَ بنت خويلد، وسافر لأجـل ذلـك إلـى الشـام للمـرة الثـانيـة، وكـان عمـره خمسـاً وعشرين سنة، وقد رجع بأرباح عظيمة، وكان في صحبته هذه المرة ميسرة غلام خديجة، فقص عليها ما شاهده من صدق محمد، وشواهد كرامة الله له في تلك السفرة، مما رغبها أن تطلب الزواج منه، فوافق عمه أبو طالب على ذلك، وتزوج بها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين، فولدت له جميعَ أولاده وبناته ما عدا إبراهيم فإنه من مارية.

* سـيـرتـه:

أمضى سيِّدنا محمد ﷺ نحواً من أربعين سنة من عمره في مكة، بين قوم اعتادوا الفسق والفجور، ودرجوا على عبادة الأوثان، لكنه لم يكن طوال حياته يميل إلى ما يميلون إليه، ولا يعبد ما يعبدون، بل كان أحسنَهم أخلاقاً، إذ تصفه خديجة زوجه قائله: «**إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وتَحْمِلُ الكُلَّ، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلى نَوائِبِ الحَقِّ**».

ولذلك اشتهر بين قومه بـ «**الأمين**».

ومما يدل على ذلك: «رضاء القبائل من قريش بحكمه، عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه لَمَّا أرادوا تجديد بناء الكعبة، فلما رأوه قالوا: **هذا الأمين!** رضينا، **هذا محمد!** فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «**هلمَّ إليَّ ثوباً**»، فأتي به، «**فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**»، ففعلوا، **حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه**».

* بشارته بالنبوة:

لمَّا بلغ سيّدنا محمد ﷺ الأربعين من عمره بدىء بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حببت إليه الخلوة والاعتزال عن الناس، فكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه أياماً وليالي حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فنَزل عليه الملَك جبريل بالوحي معلناً له أنه رسول الله إلى الناس، تالياً عليه قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

*** ظهور الإسلام ودعوته إليه:**

بعد هذا شرع سيّدنا محمد ﷺ يدعو إلى الله وإلى الدين الجديد سرًّا ثم جهراً، فما آمن معه إلاَّ قليل: زوجته: خديجة، وابن عمه: علي بن أبـي طالب، ومولاه: زيد بن حارثة، وصديقه قبل النبوة: أبو بكر الصديق...

ناصبت قريش العداء للرسول ودعوته، وظنت أنه يريد مالاً أو جاهاً، فأرسلت إليه عتبة بن ربيعة يساومه في ذلك، وقال له: «... إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سَوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملَّكناك علينا...».

*** الهجرة إلى الحبشة:**

ثم ما لبثت قريش أن أخذت تنكِّل وتشدِّد في عدوانها على الرسول وأصحابه وهمّوا به، فأذن الرسول لمن شاء من الصحابة في الهجرة إلى بلاد الحبشة فراراً بدينه الجديد، ليعيش هناك آمناً سالماً، **فكانت هجرتان إليها:**

الأولى: سنة خمس من النبوة، وكان عدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة في مقدمهم عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ، لكنهم لم يمكثوا فيها سوى أشهراً ثلاثة ثم عادوا إلى مكة.

والثانية: سنة سبع من النبوة بعد أن دخل الرسول الشِّعْب مع عمه أبي طالب وبني هاشم وعبد المطلب مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب، وكان عدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانيَ عشرة امرأة.

وكأن قريشاً لم يكفها هذا، فتعقبتهم في مهجرهم الجديد وأرسلت في طلبهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة طالبين من النجاشي ملكِها أن يرد معهما من هاجر إليه من المسلمين، فردهما خائبَيْن.

* عام الحزن وخروجه إلى الطائف:

وفي العام العاشر للبعثة، وهو العام الذي عرف بـ «عام لحزن»: توفي عمه أبو طالب في رجب سنة عشر للبعثة، وذلك بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، ثم توفيت خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها بعد أبي طالب بنحو شهرين ــ على قول ــ، وكانت وفاتها رضي الله تعالى عنها في شهر رمضان، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله ﷺ في الخمسين من عمره.

ففقد بموتهما العز والمنعة، ولذلك تجرَّأ المشركون على رسول الله ﷺ، ونالوا منه ما لم ينالوا في حياة عمه أبي طالب، فخرج ﷺ إلى مدينة الطائف عله يجد هادياً

ونصيراً، وأقام فيها أياماً يدعو أهلها إلى دين الحق، لكنه لم يجد منهم أي استجابة، بل ردّوا عليه ردًّا قبيحاً، فرجع: «يشكو إلى الله عزّ وجلّ ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس».

* عرضه الدعوة على قبائل العرب المشركين:

ولما يئس رسول الله ﷺ من إسلام قومه، أُمِرَ بأن يَعرض دعوته على الوفود التي تَقْدُمُ مكة كُلَّ عام في موسم الحج. وكان ممَّن عرض عليهم الدعوة: نفرٌ من عرب يثرب، من الأوس، فآمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام في المدينة، منهم: أسعد بن زرارة.

فلما كان العام القابل، لقيه اثنا عشر من الأوس والخزرج فآمنوا به، فبعث معهم رسول الله ﷺ مقرئاً يُدْعَى (مصعب بن عمير) يعلمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن.

* الإسلام في المدينة:

وفي العام الثالث عشر للنبوة وفَد عَليه سبعون رجلاً من يثرب/ المدينة، يبايعونه على الإسلام، ويدعونه للهجرة إليهم، وذلك بعد أن عمَّ الإسلام المدينة، ولم تبق دار من دور المدينة إلاَّ وفيها ذكر الرسول ﷺ.

فأجاب رسول الله ﷺ دعوتهم، وأمر أصحابه بالهجرة

إليها، ثم لحقهم ﷺ بإذن من الله تعالى متخفِّياً: تكلؤه رعاية الله، وتحفه عناية ربه، وكان خروجه من مكة في صحبة أبي بكر الصديق وما أن علمتْ قريش بخروج النبي ﷺ حتى هاجت قريش وماجت، وسعت سعيها للإيقاع بنبي الله، لكنَّ اللهَ سَلَّمَ، ووصل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة غانماً ظافراً.

وبِسَنَةِ دخول الرسول ﷺ المدينة المنورة دار هجرته، يبتدىء التاريخ الهجري في الإسلام، وذلك في سنة ٦٢٢م.

والتاريخ لم يبدأ من يوم وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، بل منذ بدأ أصحابه يتوافدون على المدينة، ولذلك فإن السنة الهجرية تبدأ بالشهر المحرم، وإن كان رسول الله ﷺ وصلها تحديداً على الراجح: في يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول سنة **١٤** من النبوة.

وفي المدينة المنورة ــ حيث قضى الرسول ﷺ فيها عشر سنين ــ قام النبي ﷺ عند وصوله إليها بثلاث ركائز:

أولها: بناء المسجد النبوي الشريف.

ثانيها: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ثالثها: وَضْعُ دستور للتعامل بين سكان المدينة جميعاً في المجتمع الجديد.

لم يدع مشركو قريش نبي الله آمناً في دار هجرته، بل كانوا يستهدفونه ودعوتَه، وكانوا يتربصون به وبأصحابه، ويُعِدُّون العُدَّة للنيل منه ومنهم، فنَزلت الآيات تترى للدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الحق، أولها قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وكانت المواجهة الأولى بينه وبين قومه قريش في (بدر) بجوار المدينة، في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، واستمرت المعارك بين الرسول ﷺ والمشركين سجالاً بين مدّ وجزر، حتى عُقِد بينهما صُلْحُ الحديبية وذلك في العام السادس من الهجرة، لكن المشركين نقضوا العهد.

* فتح مكة:

بعد نقض المشركين للعهد؛ ما كان من الرسول ﷺ إلَّا أن توجَّه في عشرة آلاف من أصحابه إلى مكة، ودخلها فاتحاً بإذن الله، فَهَوَت الأصنام، وكان إِذْناً بدخول الناس في دين الله أفواجاً.

وبعد فتح مكة انتشر الإسلام في جزيرة العرب، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة.

وفي السنة العاشرة أقبلت وفود العرب قاطبة تبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، وقد أحصاها ابن سعد في كتابه «الطبقات» بأكثر من سبعين وفداً.

حَجَّـةُ الـوداع:

وفي نهاية السنة العاشرة للهجرة حج رسول الله ﷺ حجته الأخيرة، المعروفة بِـ (حجة الوداع)، وخطب خطبة كانت من أطول خطبه ﷺ، وأكثرها استيعاباً لأمور الدين والدنيا معاً، وفيها نزل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]، فلما سمعها أبو بكر الصديق بَكَى.

* وفاة الرسول العظيم ﷺ:

وفـي أواخـر شهـر صَفَـر سنـة إحـدى عشـرة للهجـرة، مَرِضَ رسول الله ﷺ بالحمَّى، إلى أن توفي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، ودفن في حجرته التي توفي فيها، وله من العمر ثلاث وستون عاماً، تاركاً خلفه شريعة غرّاء، وذِكْراً حسناً، وأصحاباً كراماً، وخلفاء عظاماً، أجلهم: **أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبـي طالب رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.**

* * *




الفصل الثاني

فضائل الرَّسول الكريمة ﷺ

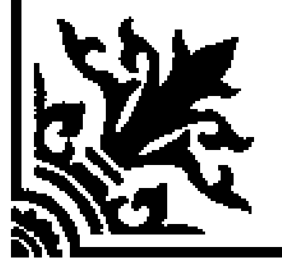
* فضلُ معرفة شخصيَّته الباهرة ﷺ .
* فضلُ اختياره واصطفائه ﷺ .
* فضلُ أجداده وآبائه الكرام ﷺ .
* فضلُ نسبه الشريف العالي ﷺ .







فضلُ معرفة شخصيّته الباهرة ﷺ




إنَّ معرفة الرسول ﷺ، ومعرفة شمائله، وفضائله، التي منبعها (الذات) المحمدية، متأكِّدة، بل واجبة، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنين: ٦٩].

ولذلك جعل الله من صُحبة النبي ﷺ مكانة كريمة، وأجراً عظيماً، قال الله تعالى في فضل الصحابة جملةً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقال سبحانه مُزكّياً إياهم، ومُثْنياً عليهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي صحيح البخاري، باب (فضائل أصحاب

النبي ﷺ)، عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**».

قال العلماء: «وإذا ثبت ثناء الله ورسولِه عليهم رضي الله عنهم بكل فضيلة، والشهادة لهم بالمناقب الجليلة، فأي دين يبقى لمن نبذ كتاب الله وراء ظهره، فنسبهم إلى باطل... وإن فضيلة (**الصحبة**) ولو بلحظة لا توازيها فضيلة، ولا تُنال درجتُها بشيء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

وروى البخاري ومسلم في صحيحَيْهما أنه ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ** ــ وفي رواية ــ **خَيْرُ النَّاس قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ** ــ أي التابعون ــ ، **ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ** ــ أي تابعو التابعين ــ ».

قال العلماء: «وإنما كانوا خير القرون لشهادة الله تعالى ورسوله ﷺ لهم بكل فضيلة: من الإخلاص، والصدق، والتقوى، والشدة في الدين، والرحمة على المؤمنين، ونصرة الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله تعالى، وبَذْل النفوس والأموال، وبيعها من الله، وإيثارهم على

---

(١) «حدائق الأنوار» لابن الدَّيبع الشَّيباني (٢/ ١٠).

أنفسهم، وكونهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البيِّنة: ٨]، والحائزين على الفوز والفلاح، والبشارة بأعلى الجنان وجوار الرحمٰن، إلى غير ذلك.

ومدح الله لا يتبدَّل، ووعده لا يُخْلَف ولا يتحول، إذ هو سبحانه المطَّلع على عواقب الأمور، والعالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا يمدح جلّ وعلا إلَّا: من سبقت له منه الحسنى، وكان ممدوحاً في الآخرة والأولى»[1].

* * *

(١) «حدائق الأنوار» لابن الدَّيبع الشَّيباني (٢/ ١١).




فضلُ اختياره واصطفائه ﷺ




اختار الله تعالى نبيه ورسوله محمداً ﷺ ثم اصطفاه، من آباء كرام وأمهات طاهرات، فكان صفوة الخلق، وخير الناس على الإطلاق.

روى الإمام مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**».

ورَوَى الإمام الترمذي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مَثَلَكَ كَمَثَلِ نخلةٍ في كَبْوة من الأرض» فقال ﷺ: «**إنَّ الله خلق الخلق، فجعلني من خيرهم، من خيرِ فِرَقِهم، وخير الفريقين، ثمَّ تخيَّر القبائلَ، فجعلني من خيرِ قبيلةٍ، ثمَّ تخيَّر البيوت، فجعلني من خيْر بيوتهم، فأنا خَيْرُهُم نفْساً وخيرُهُم بيتاً**».

ورَوَى الإمام البخاري عن أبـي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثتُ منْ خيرِ قرونِ بني آدَم قرناً فقرناً، حتَّى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ منه**»[1].

ورَوَى الإمامُ الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: «**من صلب نبـيٍّ إلى صلبِ نبيٍّ حتى صرتُ نبيًّا**».

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن هرقل ملكَ الروم سأل أبا سفيان عن نسب النبـي ﷺ، فقال: كيف نسبه فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ـ يعني محمَّداً ﷺ ـ ذو نسب عالٍ منيفٍ على كل الأنساب، فقال هرقل: كذلك الرسل تُبْعث في أنساب قومها».

وعن العباس رضي الله عنه، أن النبـي ﷺ بلغه بعض ما يقول الناس، فصعِد ﷺ المنبر فقال: «من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، فقال: «**أنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب، إنَّ الله خلقَ الخلقَ فجعلني من خِيرةِ خلقه، وجعلَهم فرقتين، فجعلني من خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلةٍ، وجعلهم بيوتاً، فجعلني من خيرهم**

---

(١) زاد ابن سعد من مرسل أبـي جعفر الباقر رضي الله تعالى عنهما: «**ثمَّ اختارَ بني هاشمٍ منْ قريشٍ، ثمَّ اختارَ بني عبْدِ المطَّلبِ من بني هاشمٍ**».

بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً». رواه الإمام أحمد.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«قالَ لي جبريل: قلَّبتُ الأرض من مشارقها ومغاربها، فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ﷺ، وقلَّبت الأرض من مشارقها ومغاربها، فلم أجد بني أبٍ أفضلَ من بني هاشمٍ»**[1].

ومن حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عزّ وجلّ اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم، فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب، فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خياراً من خيارٍ، ألا من أحب العرب فبحبي أحبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»**[2].

قال القاضي عياض: «فإنه ﷺ نُخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قِبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، ومن أكرم بلاد الله على الله، وعلى عباده».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهذا مرسل جيد.

(٢) رواه الطبراني في معجمَيْه: الكبير والأوسط: «هذا الحديث نص في أن الله عزّ وجلّ فضَّل (العرب) على سائر الناس، وفضَّل (قريشاً) على سائر القبائل».




فضلُ أجداده وآبائه الكرام ﷺ



روى مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

فهؤلاء القواعد الثلاث المذكورة في هذا الحديث الشريف، وهي: (**كنانة**) و (**قريش**) و (**بنو هاشم**): مصدر شرف ورفعة، وطهر ونبل، وخلود واصطفاء.

فاصطفاء الله لِـ (كنانة) يُفسِّره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونُبْله، ومن ذلك ما جاء في كتاب «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، أنه نُقِل عن أبـي عامر العدواني أنه قال: «رأيت كنانة بن خزيمة شيخاً مسنًّا، عظيم القدْر، تحج إليه العرب لعلمه وفضله بينهم».

وأما اصطفاء الله تعالى لـ (قريش) وهو ذرية (**فهر بن**

مالك)، وقيل: (جده النضر)؛ فقد كانوا بما آتاهم الله من المناقب العظام، ولا سيَّما بعد سكنى مكة وخدمة المسجد الحرام، إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلاهم آداباً، وأفصحهم ألسنة، وهم المَمَهِّدون لجمع الكلمة؛ فقد نقل أهل السِّير، أنَّ (**مالك بن النضر**) كان ملك العرب، وأن (**كعب بن لُؤَيّ**) كان يجمع قومه ويعظهم يوم الجمعة، وكانوا يسمونه يوم العروبة، وأنهم كانوا يُجِلُّونه في حياته، ثم أَرخوا بموته بعد وفاته، وأن (**قُصَيًّا**) جمع شمل قبائل قريش بمكة، إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونْها من خزاعة وقد تملك عليهم فملَّكوه، إلاَّ أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده؛ قال ابن إسحاق: «وهو الذي أنشأ النَّدرة، وجعل بابها إلى الكعبة، وقد أجمعت قريش على طاعته وحبه، فكانت إليه الحِجابة، والسقاية، والرِّفادة، والندوة، واللواء، ثم وزعت المناصب بعده على الزعماء».

وأفضل من ذلك كله ما وُفِّقُوا له في حداثة الرسول ﷺ، من التحالف الذي عرف بحلف الفضول، إذ تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلاَّ قاموا معه، وكانوا عوناً له على من ظلمه، إلى أن تُرد مظلمته. وفي

حديث الزبير بن العوام عند الطبراني، ومثله حديث أم هانيء في معجمه الأوسط وتاريخ البخاري: «**فضَّلَ اللهُ قريشاً بسبع خصالٍ: فَضَّلهم بأنهم عبدوا الله عشرين سنين لا يعبد الله إلاَّ قرشي. وفَضَّلَهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفَضَّلَهم بأنه نَزَّل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين ــ وهي ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ــ وفَضَّلَهم بأن فيهم النبوة والخلافة، والحجابة والسقاية**».

تلك جملة ما كان من ارتقاء قريش واستعداد العرب للإسلام، ولكن هذه القوى المعنوية كلها وُجِّهَت لمعاداته ﷺ.

وأما اصطفاء الله تعالى لـ (بني هاشم)، فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم، فقد روى أبو نعيم من حديث المستورد الفِهرِيّ رضي الله عنه: «**إن فيهم لَخِصالاً أربعاً: إنهم أصلح الناس عند فتنة، وأسرعهم إقامة بعد مصيبة. وأوشكهم كرَّة بعد كرة، وخيرهم لمسكين ويتيم، وأمنعهم من ظلم الملوك**».

وكان جدهم (**هاشم**) صاحب إيلاف قريش، الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف، وروي أنه هو الذي سن الرحلتين، وأخذ العهود بها من الحكومتين، حكومة اليمن العربية، وحكومة الشام

الرومية، فاتسعت بهما معيشة قريش، وأمنوا في تجارتهم من كل خوف، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن، بما عدت به التجارة من أشرف أعمال الإنسان، وإنما أطلق لقب (**هاشم**) على (**عمرو بن عبد مناف**)، لأنه أول من هَشَم الثريد للمُسنتِين العِجاف[1].

وكان في كل عام يشبع منه قومه وأهل الموسم كافة، بل أشبع منه قومه في سنة القحط والمجاعة، على أن مائدته كانت منصوبة لا ترفع في السراء ولا في الضراء، وزاد عليه ولده (**عبد المطلب**) فكان يطعم الوحش وطير السماء، وكان أول من تحنَّث بغار حراء، وروي أنه حرم الخمر على نفسه، وجعل ماء زمزم للشرب فحرم أن يُغتسل به[2].

* * *

---

(١) المسنتون: اسم فاعل من أسنت القوم أصابتهم السنة والقحط. والعجاف: جمع أعجف وعجفاء، وهم الذين ضعفوا وهزلت أبدانهم، والعبارة مأخوذة من قول ابن الزبعري في مدح هاشم:

عمرو العلا هشَم الثريد لقومه   وأهل مكة مسنتون عجاف

(٢) خلاصة السيرة المحمدية للسيد محمد رشيد رضا.




فضلُ نسبه الشريف العالي ﷺ




جرت سُنَّة الله تعالى في أنبيائه ورسله «أن يختارهم من أشرفِ الناس أصلاً، وأكرمِهم نسباً، وأطيبهم منبتاً».

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عَمُودَ نسبه الشريف في صحيحه: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هو محمد ﷺ ابنُ عبد الله بنِ عبد المطلبِ بنِ هاشم ابنِ عبد مَنَافِ بنِ قُصَيٍّ بنِ كِلاَبِ بنِ مُرَّة بنِ كعب بنِ لُؤَي بنِ غالب بنِ فهرِ بنِ مالك بنِ النَّضْرِ بنِ كِنَانَة بنِ خزيمة بنِ مُدْرِكَة ابنِ إلْيَاس بنِ مُضَر بنِ نِزَار بنِ مَعَدّ بنِ عَدْنَان».

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء، وجميعُ عَرَبِ الحجاز ينتهون إلى هذا النسب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشّورى: ٢٣]، قال: «لم يكن بطن من بطون قريش إلاَّ ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم».

كما وأنَّ جميع قبائلِ **(العرب العدنانيَّة)** تنتهي إلى هذا النسب بالآباء، وكثير منهم بالأمهات أيضاً، ولذلك طالب رسول الله ﷺ جميع قبائل العرب أن يرعوْا تلك القرابة، ويناصروه، ويكفوا عنه الأذى.

كما أنه لا خلاف بين العلماء أنَّ عدنان هو من سُلالة إسماعيل بنِ سيدنا إبراهيم، عليهما السلام، وإنما اختلف العلماء فيمن بين عدنان وإبراهيم. قال الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري»: أخرج ابن سعد من حديث ابن عباس، أنَّ النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يتجاوز في نسبه مَعَدَّ بنَ عدنان.

هذا نسبه ﷺ من جهة أبيه.

أما نسبه من جهة أمه، فهو: «محمدُ بن آمنة بنتِ وهب بنِ عبد منافٍ بنِ زهرة بنِ كلاب»، فيلتقي النَّسَبَان عنده جده **(كلاب)**، وهو مصدر في معنى المكالبة أي المغالبة، أما اسمه فهو: **(حكيم)**.

ومن جدودهما **(فهر)** من قريش، وإليه تَنْتَسِب القبائل القرشية ذاتُ الشأن الرفيع.

وبذلك يكون رسول الله ﷺ شريفَ النسب، عاليَ القدْر، وهذا يُعَدُّ مِنْ شمائله الكريمة ﷺ.

* * *




الفصل الثالث

عناية الله المطلقة بالرّسول

* ❊ حفظه تعالى له ﷺ منذ الصغر .
* ❊ إكرامه تعالى له ﷺ بالنبوة الخالدة .
* ❊ تكريمه تعالى له ﷺ على سائر الخلق .
* ❊ تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .







حفظه تعالى له ﷺ منذ الصغر




قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨].

في هذه الآيات الثلاث وجوه من العناية الإلـهية بعبده ورسوله محمد ﷺ، في كل أحواله، وجميع تصرفاته:

توفي أبوه وأمه حُبلَى به، كما جاء في المستدرك عن قيس بن مخرمة رضي الله عنه، فكان مع أمه آمنة إلى جانب جده عبد المطلب يرعاه، ولمَّا بلغ من العمر ستّ سنين، توفيت أمه بالأبواء، فكفله جده، فلمَّا حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ أوصى به إلى أبـي طالب وقد بلغ ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، إلى أن كبر، وتزوج، وأُكرم بالنبوة والرسالة.

أسند الواقدي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان أبو طالب يحب رسول الله ﷺ حبًّا شديداً لا يحبه

ولده، وكان لا ينام إلَّا إلى جانبه، ويخرج فيخرج معه، وصبا به أبو طالب صبابة لم يَصْبُ مثلها بشيء قط.

قال: وكان أبو طالب يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان ـ أبو طالب ـ إذا أراد أن يغذِّيهم قال ـ أبو طالب ـ: كما أنتم ـ أي لا تأكلوا ـ حتى يأتي ولدي محمد، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يُفضلون من طعامهم، وإذا كان لبناً شرب أولهم ثم يشربون فيروون كلُّهم من قَعْب ـ إناءٍ ـ واحد، فيقول أبو طالب: إنك ـ يا محمد ـ لمبارك.

وروى أبو نعيم وابن إسحاق وغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بنو أبي طالب يُصبحون رُمْصاً شُعْثاً، ويصبح محمد ﷺ صَقيلاً، دَهيناً، كحيلاً، وكان أبو طالب يحبه حبًّا شديداً.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، فقد ذكر علماء التفسير لها وجوهاً عديدة من المعاني، نقتصر على ذكر ثلاثة منها:

الوجه الأول: وجدك غير عالم بالنبوة وعلومها، والكتاب المبين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه الثاني: ما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أنه ظل ﷺ في شعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه، فرده إلى جده عبد المطلب، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يرد إليه محمداً» رواه البيهقي.

الوجه الثالث: إشارةً إلى ما همَّ به ﷺ من السمر كما يسمُر الشباب وذلك قبل البعثة فحفظه الله تعالى وألقى عليه النوم، ويشهد لذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام» (١/ ١٤٩)، والسيوطي في كتابه «الخصائص الكبرى» (١/ ٨٨): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بشيء مما يهمّ به أهل الجاهلية إلاَّ مرتين عصمني الله فيهما: قلت ليلةً لفتى من قريش: أبصر لي غنمي حتى أسمُر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال**: نعم، قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت غناءً وعزفاً وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، فجلست لذلك، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلاَّ مس الشمس.

فرجعت إلى صاحبي. ثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك فنمت. فوالله ما هممت بعدها بشيء من ذلك، حتى أكرمني الله بنبوته».

أما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، أي: وجدك ذا عيلة، أي: إقلال، فأغناك ربك عمن سواه، وفتح عليك أبواب الخير والرزق، سواءٌ بالتجارة أو بزواج خديجة أو عطاء من ربك غير مجذوذ، أي غير مقطوع.

قال الإمام القسطلاني في كتابه «المواهب»: قال الحليمي في شعب الإيمان: «من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعَة ــ أي النقص ــ فلا يقول: كان فقيراً». اهـ، لأنه يوهم النقص.

وقال العلامة تقي الدين السبكي: «لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان ﷺ أغنى الناس، فقد كُفِي أمْرَ دنياه في نفسه وعياله».

ومعنى دعائه ﷺ كما جاء في حديث الترمذي وابن ماجه: «**اللهمَّ أحيِني مسكيناً، واحشُرني في زمرة المساكين**»، المراد به: استكانة القلب. قال العلامة الزرقاني: أي تواضع القلب وانكساره إلى الله تعالى، لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته.

قال العلامة المحدث، فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين: «وكيف يكون ﷺ فقيراً فقْرَ اضطرار وفَقْدَ مال!! والحال قد عرض الله تعالى عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى ذلك؟

وقد خيَّره بين أن يكون نبيًّا ملِكاً أو نبيًّا عبداً، فقال ﷺ: «نبيًّا عبداً»، فعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«عَرَض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاءُ مكَّة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جِعْتُ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»**. رواه الترمذي وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد.

ومن حديث الطبراني بإسناد حسن، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما... وفيه: «فأتاه إسرافيل فقال: إن الله قد سمع ما ذكرتَ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك [أن] أُسَيِّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً، وذهباً وفضة، فإن رضيتَ فعلتُ، فإن شئت نبيًّا ملكاً، وإن شئت نبيًّا عبداً، فأومأ إليه جبريل: أن تواضع»، فقال ﷺ: **«بل نبيًّا عبداً»**، قالها ثلاثاً.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُتيتُ بمقاليد الدنيا على فرس أبلق، جاءني**

بـه جبـريـل». رواه أحمـد بسنـد رجـالـه رجـال الصحيـح، وصححه ابن حبان.

فقـد تـرفَّـع رسـول الله ﷺ بنفسـه عـن حُطـام الـدنيـا وأموالها، وذهبها وفضتها، ولم يركن إلى نعيمها، ولا إلى ترف عيشها، مع تيسر ذلك له، بل كانت همته أشرف من ذلك وأسمى، وأمْجد وأعلى.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخلتْ عليّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثتْ إِليَّ بفراش حشوه صوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقـال: «**مـا هـذا يـا عـائشـة؟**» قلـت: «يـا رسـول الله فـلانـة الأنصـاريـة، دخلـتْ فـرأتْ فـراشـكَ، فـذهبـتْ فبعثـتْ إلـيَّ بهذا»، فقال ﷺ: «**رُدِّيه يا عائشة، فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبالَ الذهبِ والفضَّة**». رواه البيهقي.

* * *




إكْرَامُهُ ﷺ بالنبوة الخالدة




جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثَ عشْرَة سنةً يوحَى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة».

وكان ذلك يوم الاثنين في شهر ربيع الأول، فعن أبي قتادة أنَّ النبي ﷺ سُئِل عن صوم يوم الاثنين، قال ﷺ: «**ذلك يوم وُلِدْتُ فيه، ويوم بُعثتُ فيه**» رواه مسلم.

وعن كيفية مجيء الوحي إليه، روى البخاري بسنده إلى السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «أول ما بُدِىءَ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينْزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها.

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء!؟ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ١ ــ ٣]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «**زمِّلوني، زمِّلوني**» فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة ــ وأخبرها الخبر ــ: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة: «**كلا، والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكْسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعِين على نوائب الحقّ**».

فانطلقتْ به خديجة، حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة ــ وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعِبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ ــ فقالت له خديجة: «يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك»، فقال له ورقة: «يا ابن أخي، ماذا ترى؟» فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: «هذا النَّاموس الذي نزَّل الله

على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك»، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجيَّ هم؟» قال: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاَّ عودِيَ، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً»، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي، ثم أنزل الله تعالى عليه بعد فترة الوحي «أوائل سورة المدثر» كما رُوِي في الصحيحين: عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جِواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ــ أي جبريل ــ فلم أثبت له»**. وفي رواية: **«فرفعت بصري فإذا الملَك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه ــ فرجعت»**، وفي رواية: **«فجئت ــ إلى أهلي، فقلت: زمّلوني، زمّلوني»**، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدّثر: ١ ــ ٥]، فقام ﷺ ينذر الناس ويدعوهم إلى الله تعالى.

وصدق الله العظيم إذ يقول في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ــ ٤٧].



تكريمه ﷺ على سائر الخلق

روى الطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قَسَمَ الخلق قسمين، فجعلني من خيرهم قسماً، فذلك قوله تعالى: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: فأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني من خيرها بيتاً، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]».

وفي رواية وهب: أنه ﷺ قال[1]: «**قال الله تعالى: سَلْ يا محمد، فقلت: ما أسأل يا رب. اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وكلَّمتَ موسى تكليماً، واصطفيت نوحاً، وأعطيت سليمان ملكاً لا ينبغي لأحده من بعده، فقال الله تعالى: ما أعطيتك خير من ذلك، أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمي ينادى به في جوف السماء، وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت تمشي في الناس مغفوراً لك، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك، وجعلت قلوب أمتك مصاحِفها، وخبأت لك شفاعتك ولم أخبأها لنبـي غيرك**».

ورَوَى البيهقـي عـن ابـن عبـاس قـال: «إن الله فضَّـل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: فما فضله على أهل السماء: قال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، قالوا: وما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لمحمد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] ».

---

(١) رواه البيهقي من حديث أسماء في الإسراء حيث أتى سدرة المنتهى.

وروى الترمذي والدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه قال ﷺ: «**ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حِلَقَ الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**».

وعند الدارمي: «**وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر**»، الحديث.

وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر**» رواه أحمد والترمذي.

قال العلماء: «ولذلك كان ﷺ أول من يُحشر، وأول من يجوز الصراط بأمَّته، وأول من يُشفَّع ويَشفع، وأول من يَفْتح باب الجنة، وأول من يدخلها، وجميع أهل الجنة إنما يدخلون الجنة من ورائه ﷺ، كلٌّ على حسب مقامه، ورتبته في التقوى».

* * *




تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام




قال الله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أشارت الآية الكريمة إلى تفضيل بعض النبيين على بعض بالخصائص، فمنهم من فضَّله الله تعالى بأن كلَّمه من غير سفير كآدم، وموسى، ومحمد صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، ومنهم من فضَّله الله تعالى بأن رفعه على سائر الأنبياء بدرجات كثيرة كما ورد في حديث الإسراء؛ حيث إنَّ بعضهم في السماء الدنيا، وبعضهم في الثانية... إلخ.

والخلاصة أن جميع الرسل متساوون في الرسالة، متفاوتون في الفضل، كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان، ولكن يتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان.

أما رسولنا محمد ﷺ فقد فُضِّل على كافة الرسل

بإرساله إلى الخلق عامة، وأنه خاتم النبيين، وأنه أُوتِيَ ما لم يُؤْتَهُ أحد من العالمين.

روَى مسلم والترمذي عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامِعَ الكلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلَت لي الأرض مسجداً وطَهوراً، وأَرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم رأيتُني أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يديَّ**».

وروى أبو يعلى في مسنده عن عمر ﵁ مرفوعاً: «**أُعطيتُ جوامعَ الكلم، واختُصر لي الكلام اختصاراً**».

* * *




الفصل الرابع

أوصاف الرَّسُول العظيمة ﷺ

* كمال خَلْقِه وحسن خِلقته ﷺ .
* قلبه الشريف ﷺ .
* سمعه الشريف ﷺ .
* صوته الشريف ﷺ .







كَمَالُ خَلْقِهِ وحُسْنُ خِلْقَتِهِ ﷺ




خَلَقَ الله عزّ وجلّ سيِّدَنا محمداً ﷺ في أكمل خَلْقٍ وأجمله، وأحسنِ صورة وأفضلِها، وقد روى ذلك الصحابةُ الذين رأوه ﷺ وعايَشوه، وليس مَن رأى كمن سمِع.

روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: «**كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل، ضَخم الرأس، خَشنَ الكفين والقدمين، مُشْرَباً وجهُه بحمرة، طويل المسرُبة، إذا مشى تكفأ كأنما يُقلع من صخر، لم أرَ قبله ولا بعده مثله...**».

وروى الحافظ البيهقي: أن رسول الله ﷺ ليلةَ هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فُهيرة موْلى أبي بكر، ودليلُهم عبد الله بنُ أُرَيْقِطَ الليثي، فمَرُّوا بخيمة أم معبدٍ عاتكة بنت خالد الخزاعية... الحديث.

فوصفَت لزوجها أبي مَعْبَدٍ رسولَ الله ﷺ وقالت: «رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه،

لم تَعِبه ثَجْلة[1]، ولم تُزْرِ به صَعْلة[2]، قسيم وسيم[3]، في عينيه دَعَج[4]، وفي أشفاره وَطَف[5]، وفي صوته صَحَل[6]، أحْور[7]، أكحل[8]، أزجُّ[9]، أقرن[10]، في عنقه سطع[11]، وفي لحيته كثاثة، إذا صمَتَ فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، كلامه فصل لا نزر[12] ولا هذر[13]، كأن منطقه خرزات نظم يَتَحَدَّرْن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب، ربعة، لا تَشنَؤه[14] عين من طول،

---

(١) الثَّجْلَةُ (بفتح الثاء وسكون الجيم)، معناها: عظم البطن.

(٢) الصَّعلة (بفتح الصاد وسكون العين): صِغر الرأس.

(٣) ما يدل عليه الحُسن.

(٤) الدَّعَج: شدة سواد حدقة العين.

(٥) الوطَف (بفتح الطاء): كثرة شعر الحاجبين والعينين.

(٦) الصَّحَلُ (بفتح الصاد والحاء): وهو كالبحَّة في الصوت.

(٧) الحَوَر: اشتداد بياض بياض العين وسواد سوادها.

(٨) الكَحَل (بفتح الكاف والحاء): سوادٌ في أجفان العين خِلقة.

(٩) الأزجُّ: دقيق طرَف الحاجبين.

(١٠) الأقرن: مقرون الحاجبين.

(١١) السطع: أي الارتفاع والطول.

(١٢) النزْر (بسكون الزاي): هو القليل.

(١٣) الهذَر (بفتح الذال): الكثير.

(١٤) لا تشنؤه: أي لا يبغض لفرط طوله.

ولا تقتحمه[1] عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدًّا، له رفقاء يَحفون به، إن قال استمَعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود محشود[2]، لا عابس ولا مفنِّد»[3].

فقال أبو معبد: «هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفتُه لالتمست أن أصحبه، ـ وفي رواية: لو رأيته لاتبعته ـ ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. ثم هاجرتْ مع زوجها إلى النبي ﷺ وأسلما».

وروَى هندُ بن أبي هالة حديثاً يُعْتبر من أجمع الأحاديث الواردة في بيان أوصافه ﷺ[4]، ونصَّه كما أخرجه الإمام الترمذي: عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال: سألتُ خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصَّافاً ـ عن حِلْية رسول الله ﷺ، وأنا أشتهي أن يصفَ لي منها شيئاً

(١) لا تقتحمه: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً.

(٢) محفود: أي مخدوم، والمحشود: الذي عنده حَشد وهم الجماعة.

(٣) المفنّد: الذي يُكثر اللوم.

(٤) ذلك أن هنداً هذا هو «ابن السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، من زوجها الأول: (**أبي هالة**)، فهو «ربيب النبي ﷺ»، وكان لصغر سنّه يُكثر النظر إلى النبي ﷺ حتى يملأ عينه ويتشبع، على عكس كبار الصحابة الذين كانوا يتهيبون من إحداق النظر إليه وإطالته، ولهذا السبب أكثر من وصفه، واشتهر بـ: «هند الوصَّاف».

أتعلَّق به، فقال رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر، أطولَ من المربوع، وأقصر من المُشَذَّب، عظيم الهامة، رجِلَ الشَّعر، إذا انفرقت عقيقته فرَقها، وإلاَّ فلا، يُجاوز شعره شحمةَ أُذُنَيْه إذا هو وفَّره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزَجَّ الحواجب، سوابغَ في غير قَرَن، بينهما عِرق يُدِرُّه الغضب، أقنى العِرْنَين، له نورٌ يعلوه، يحسبَه من لم يتأمله أشَمَّ.

كَثَّ اللحية، سهلَ الخدَّين، ضليعَ الفم، مفلَّج الأسنان، دقيقَ المَسْرُبة، كأنَّ عنقَه جِيد دُميةٍ في صفاء الفضة.

معتدلَ الخلق، بادناً، متماسكاً، سواءَ البطن والصَّدْر، عريضَ الصدر، بعيدَ ما بين المنكبين، ضخمَ الكراديس. أنورَ المتجرَّد، موصولَ ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعر يجري كالخطّ، عاري الثَّدْيَيْن والبطن ممَّا سوى ذلك، أشعرَ الذراعين والمنكبين وأعالي الصَّدر. طويلَ الزَّندين، رحبَ الراحة، شَثْنَ الكفين والقدمين، سائلَ الأطراف ـ أو قال: شائل الأطراف ـ، خُمصانَ الأخْمَصَين، مسيحَ القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قِلَعاً. يخطو تكفئاً ويمشي هَوْناً، ذريعَ المشية، إذا مشى كأنما ينحطّ من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً. خافضَ الطَّرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة. يسوق أصحابَه، ويبدر من لقي بالسلام».



قَلْبُهُ الشَّرِيف ﷺ

جَعَل الله تعالى قَلْبَ سيدنا محمد ﷺ خَيْرَ القلوب، وأزكاها وأطهرَها، فَهو قلبٌ عظيم، قلب كريم، قلب تقي، قلب ليِّن..

وقد دلّت الآيات والأحاديث الشريفة على كل ذلك:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

فيها إيماءٌ «إلى تخصيص قلبه الشريف ﷺ بنزول القرآن عليه دون سائر القلوب، وذلك لكمال اتساعه الذي منحه الله تعالى إياه، وقوةِ تحمله لتنزُّلات القرآن العظيم، الذي لو أُنْزِلَ على الصُّمّ الراسيات، والجبال الشامخات، لتصدّعت وتشقّقت من خشية الله تعالى، كما قال تعالى:

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحشر: ٢١].

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ــ في مسند الإمام أحمد ــ أنه قال: «إن الله تعالى نَظَرَ في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد، فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوبِ العباد، فجعلهم وزراءَ نبيِّه ﷺ، يقاتلون عن دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيِّىء»[1].

وفي الصحيحين من حديث النبي ﷺ: **«أَمَا والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له»**.

وفي سنن أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا يُبَلِّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإنِّي أُحِب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»**.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال: **«يا عبادي لو أنّ أوَلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد في مُلكي شيئاً. . .»**.

---

(١) قال في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون.

ورَوَى ابن ماجه عن ابن عمْرو رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله: أي الناس أفضل؟ قال ﷺ: «**كلُّ مخْمُوم القلب، صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال ﷺ: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا غِلّ، ولا حسد**».

* * *




سَمْعُهُ الشَّرِيف ﷺ




ومن شمائل الرّسول الأكرم ﷺ اختصاصه بقوّة في سمعه الشريف، فإنَّ الله تعالى أعطى رسولَه محمداً ﷺ ما لا يسمعه غيره، كما رَوَى ذلك أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّتِ[1] السماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع إلاَّ وفيه ملك واضعٌ جبهته لله تعالى ساجداً، واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى**». رواه الترمذي وأحمد.

ومن خصائص قوَّة سمعه الشريف، سماعه ﷺ فتح باب السماء؛ لِمَا روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس

---

(١) أي: ظهر لها صوت من كثرة ما عليها من الملائكة، مشتق من الأطيط، وهو صوت الرَّحل.

رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال: **«يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفَّة من دقيق، ولا كفّ من سويق»**، فلم يكن كلامه بأسرعَ من أن سمع هدَّةً في السماء أفزعته، فقال ﷺ: **«أمر الله تعالى القيامة أن تقوم؟»**، فقال ـ جبريل ـ: لا، ولكن أمر إسرافيل، فنَزل إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك، أُسيِّر معك جبال تِهامة زمرداً وياقوتاً، وذهباً وفضة، فإن شئتَ نبيًّا ملِكاً، وإن شئتَ نبيًّا عبداً. فأومأ إليه جبريل: أن تواضع، فقال: **«بل نبيًّا عبداً ـ ثلاثاً ـ، فلو أني قلت: نبيًّا ملِكاً لسارت الجبال معي ذهباً»**.

وروى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينا رسولُ الله ﷺ في حائط لبني النجار ونحن معه، إذا جادتْ به بغلته فكادت تُلقيه، وإذا أقبُرٌ ستة أو خمسة، فقال ﷺ: **«من يعرف أصحاب هذه القبور؟»**، فقال رجل: أنا، فقال: **«متى ماتوا؟»**، قال: في الشرك، فقال ﷺ: **«إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها، فلولا أنْ لا تَدافَنُوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»**.

وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

سمع رسول الله ﷺ صوتاً هالَه[1]، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذا الصوت يا جبريل؟**»، فقال: هذه صخرة هَوَتْ من شفير جهنم، من سبعين عاماً، فهذا حين بلغت قعرها، فأحبَّ الله أن يُسمعك صوتها. فما رُؤِيَ رسول الله ﷺ ضاحكاً مِلء فيه حتى قبضه الله عزّ وجلّ.

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرَّ بحائط من حيطان مكة أو المدينة، فسمع صوت إنسانين يُعَذَّبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «**إنهما ليعذبان وما يعذّبان في كبير**». ثم قال: «**بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة**».

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ في يوم شديد الحر نحو بقيع الغَرْقَد، وكان الناس يمشون خلفه، قال: فلما سمع صوت النعال وَقَرَ ذلك في نفسه، فجلس حتى قدَّمهم أمامه، فلمّا مرَّ ببقيع الغرقد إذا بِقَبْرين قد دفنوا فيهما رجلين، قال: فوقف النبي ﷺ فقال: «**مَن دفنتم ههنا اليوم؟**»، قالوا: فلان وفلان، قالوا:

---

(١) أي: أخافه.

يا نبـي الله وما ذاك؟! قال: «**أما أحدهما فكان لا يتنزَّه من البول، وأمَّا الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، وأخذ جريدةً رطبةً فشقها، ثم جعلها على القبرين، قالوا: يا نبـي الله لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: «**ليُخففَ عنهما**»، قالوا: يا رسول الله حتى متى هما يعذبان؟ فقال: «**غيب لا يعلمه إلاَّ الله، ولولا تمزُّعُ**[1] **قلوبكم وتزيُّدُكم في الحديث لسمعتم ما أسمع**».

* * *

(١) أي: تَقَطُّعُ.




صَوْتُهُ الشَّرِيف ﷺ




أعطى الله رسولَه محمداً ﷺ قوة في صوته، وحُسْناً فيه، فقد كان صوته ﷺ يبلغ المَدَى البعيد دون إسماع أو إبلاغ، حيث لا يَصِله صوت غيره...

فقد روَى الحافظ البيهقي: عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمعَ العواتق في خُدُورهنّ.

والمعنى كما قال العلاَّمة الزرقاني في كتابه «شرح المواهب اللدنية» عند هذا الحديث ما نصه: «وإنما خصّهن البراء بالذكر لبعدهن، واحتجابهن في البيوت، فسماعهن صوت النبي ﷺ ــ وهو في المسجد وهن في خدورهن ــ آية دالة على قوة صوته ﷺ، وبلوغِه حيث لا يبلغه صوتُ غيرِه». اهـ.

وروَى أبو داود والنسائي وأحمد عن عبد الرحمٰن بن

معاذ التيمي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتِّحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول، ونحن في منازلنا، فطفِق يعلمهم مناسكهم، حتى بلغ الجمار فوضع أصبعيه السبابتين ثم قال: «**ارموا بحصى الخَذف**».

وروى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت: جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس: «**اجلسوا**»، فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني غَنْم فجلس مكانه.

وهذا من كمال أدب الصحابة مع نبيهم ﷺ، والحال أن هذا الصحابيَّ عبدَ الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه غير مأمور بذلك، لأن أمره ﷺ إنما هو موجه لأصحابه الحاضرين معه من أجل سماع خطبة الجمعة، ومع ذلك فإنه جلس حيث كان.

وروى ابن ماجه عن أم هانىء رضي الله عنها قالت: كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي ــ أي على سريري ــ .

فسماعها ذلك ــ وهي داخل بيتها البعيد عن مكان القراءة ــ دليل على أن صوته الشريف كان يبلغ مكاناً لا يبلغه غيره.

وحول جمال صوته وحسنه فقد روَى الترمذي عن أنس ﷺ قال: ما بعث الله نبيًّا إلاَّ حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبِيُّكم أحسنَهم وجهاً، وأحسنَهم صوتاً.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ﷺ: قرأ رسول الله ﷺ في العشاء: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ١ ـ ٨] فلم أسمع صوتاً أحسنَ منه.

روى أبو الحسن بن الضحاك عن جبير بن مطعم قال: كان النبي ﷺ حسن النّغمة.

* * *




الفصل الخامس

كمالات الرسول ﷺ

* علومه ومعارفه ﷺ .
* رجاحةُ عقله ﷺ .
* بلاغته وفصاحته ﷺ .
* خاتَمُ النبوة بين كتفيه ﷺ .







علومه ومعارفه ﷺ




لَم يكن رسولُ الله ﷺ يُعلّمه أحد من البشر. بل إنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي تولّى تعليمَ نبيّه، وأفاض عليه علوماً ومعارف، وخصه باطلاعه على جميع أمور الدين، وشؤون الدنيا.

وقد ذكر تعالى ذلك في (سورة النساء: آية ١٣) بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

قال العلاَّمة المفسِّر أبو جعفر الطبري في تفسيره: «جامع البيان» (٥/ ٢٧٥)، عند شرحه لهذه الآية الكريمة: «ومن فضل الله عليك يا محمد مع سائر ما تفضل به عليك من نعمه، أنه أنزل عليك الكتاب، وهو القرآن، الذي فيه بيان كل شيء، وهدًى وموعظة؛ و ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: يعني وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وهي ما كان في الكتاب

مجملاً ذكره، من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه وأحكامه، ووعده ووعيده، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، من خبر الأوّلين والآخرين، وما كان، وما هو كائِنٌ قبْلُ، ذلك من فضل الله عليك يا محمد مذ خلقك». اهـ.

ويقول العلاَّمة القاضي عياض في كتابه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧): «إنّ جلالة محلّه من ذلك ﷺ، ومما تفرّع منه متحقّقَة عند مَنْ تتبّع مجاري أحواله، واطراد سَيْره، وحِكَم حديثه، وعِلمه يما في التوراة والإنجيل، والكتب المنزلة، وحِكَم الحكماء، وسِيَر الأمم الخالية وأيّامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفسية، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه ﷺ فيها قدوة، وإشارته حجة. كالعِبارة ـ والطب ـ والحساب ـ والفرائض ـ والنسب ـ وغير ذلك، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبيّ أمّي لم يُعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلَّمه، وأقرأه». اهـ.

ففي الصحيحيّن عنه ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بالله أنَا**»، وفي رواية أخرى للأصيلي: «**أَنَا أَعرَفُكُمْ بِاللهِ**».

وروى الحافظ أبو بكر بن عائذ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وُلد النبي ﷺ قال في أُذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد! فما بقي لنبيٍّ من علم إلاَّ وقد أُعطيتَه، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً.

وجاء في الصحيحيْن ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس رضي الله عنه أن الناس سألوا نبي الله ﷺ حتى أَحْفَوْه بالمسألة[1]، فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال: «**سَلوني، لا تسْألوني عن شيء إلاَّ بيَّنتُه لكم**»، وفي رواية: «**إلاَّ أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا**».

فلما سمع القوم أرَمُّوا[2] ورهبوا[3] أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى فيُدعَى لغير أبيه، فقال: يا نبيَّ الله مَن أبي؟ قال: «**أَبُوكَ حذافة**». ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله من سوء الفتن.

---

(١) أي: أكثروا عليه الأسئلة.

(٢) أي: سكتوا.

(٣) أي: خافوا.

فقال رسول الله ﷺ: «لَم أرَ كاليَوْمِ قطُّ في الخَيْرِ والشَّرِّ، إنِّي صُوِّرَتْ لي الجنَّة والنار فرأيتُهما دون هذا الحائِط».

* * *




رجاحة عقله ﷺ




العقل نعمة جزيلة من الله ورحمة، فضّل بها الإنسان على جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال العلاَّمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الآية (١٥/ ١٦٤): «جمعت الآية خمس مِنن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات، فأما مِنّة التكريم فهي مزية خَصّ بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية». اهـ.

ومعنى ﴿ كَرَّمْنَا ﴾: فضَّلنا بني آدم على غيرهم بـ «الخلق في أحسن تقويم»، وبـ «العقل» الذي هو أداة للفكر، والعلْم، والعمل، والإعمار.

ومن حديث الطبراني عن قرة بن هبيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قد أفلح مَن رُزق لُبًّا**»، يعني عقلاً راجحاً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله: الحياء، وحسن الخُلُق**». رواه الديلمي.

ومن وصيَّة النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حَسَبَ كحُسْن الخُلق**». رواه الطبراني.

ولمّا أسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه، دخل على رسول الله ﷺ فسلَّم عليه بالنبوة، قال رضي الله عنه: فردّ عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله، فقال له ﷺ: «**تَعَالَ**»! فأقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي هداك، قد كُنتُ أرى لك عقلاً، رجوتُ أن لا يُسلمك إلاَّ إلى خير**».

ورُوي أن أحد الأعراب ورد على رسول الله ﷺ ليسأله عن الإسلام، ولمّا رجع إلى قومه معلناً إسلامه، قال له قومه: بِمَ عرفتَ محمداً أنه رسول الله؟ فأجابهم الأعرابي: ما أمر محمد بأمرٍ قال العقل: لَيْتَه نهى عنه، ولا نَهَى عن شيءٍ فقال: ليته أمر به.

ولـهـذا نبَّـه الله تعـالى (العقلاء) بقـولـه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقد أدرك عبد المطلب حقيَّة الآخرة بعقله، وذلك أنه قال يوماً: ما مِن ظالم يشتدُّ ظلمه إلاَّ انتقم منه قبل أن يموت، فقيل له: فلان جار وطغى! فقال: انتقم الله منه يوم كذا. فقيل له: فلان جار وطغى ولم يُصبْه شيء! ففكَّر طويلاً ثم قال: إذاً لا بدَّ من يوم آخر ينتقم الله منه.

ويتمثّل (كمال) عقل الرسول ﷺ ورجاحتُه في رسالته الخالدة، وقضايا عصره، ثم أعماله وأحواله ﷺ.

قال حَبْر الأمة، عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهمـا: «أفضـل النـاس أعقـل النـاس، وذلـك نبيكـم محمد ﷺ».

وقال التابعي الثقة، وهب بن منبّه، فيما رواه البخاري ومسلم: «قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً ـ أي من الكتب السابقة ـ فوجدت في جميعها: إن الله تعالى لم يُعْطِ جميع الناس ـ من بدء الدنيا إلى انقضائها ـ من العقل في جنب عقل محمد ﷺ، إلاَّ كحبّة رملٍ من جميع رمالِ الدنيا، وإنَّ محمداً ﷺ أرجحُ الناس عقلاً، وأفضلُهم رأياً».

وإليك نماذج رائعة من عقلية الرسولِ محمد ﷺ، تُظْهِر مزايا فكره، وبُعْدَ نظره، ودقَّة تفكره:

١ ــ من ذلك رضاءُ قريش بحكمه عند اختلافهم فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه حتى كادت تكون فتنة، فحلَّ رسولُ الله هذا النّزاع المستطير بعقله الراجح، كما ترويه كتب السيرة، فتقول: لما تمَّ بناء الكعبة، وأرادت قريش وضع الحجر الأسود في موضعه ــ وكان ذلك قبل بعثته ﷺ ــ ، اختلف أشرافهم فيمن يضعه، وظلوا مختلفين أربعة أيام، فأشار عليهم أبو أمية الوليد بن المغيرة ــ فهو أكبرهم سنًّا ــ بأن يُحَكِّموا بينهم من يَرْضَوْن بحكمه. فاتفقوا على أن يكون الحكم لأول قادم من باب الصفا، فكان أول داخل هو رسول الله ﷺ، فارْتَاحُوا جميعاً، لما يعهدونه من أمانته، وحكمته، وصدقه، وإخلاصه للحق. وقالوا: هذا محمد، هذا الأمين، رضيناه.. هذا محمد.. فلما وصل إليهم وأخبروه الخبر، بسط رداءه وتناول الحجر، فوضعه فيه بيده، ثم قال ﷺ: «**لِتَأخذ كلُّ قبيلة بطرَف من الرداء ثم ارفعوه جميعاً**». ففعلوا حتى وصلوا به إلى موضعه، فوضعه فيه بيده ﷺ، وبذلك انتهى النّزاع. قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: كان ﷺ يسمى «الأمين»، بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة.

٢ ــ وهذا نموذج آخر من رجاحة عقل الرسول ﷺ مع رجل جاءه يطلب منه أن يُرَخِّص له في الزنا، فكان أسلوب

جوابه ﷺ حجة على ما أعطاه ربّه من رجاحة العقل:

ففي مسند الإمام أحمد: عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا، فقال ﷺ: «**أترضى أن يزنيَ الناسُ بأمّك؟**»، فقال: لا، فقال ﷺ: «**وكذلك الناس يكرهون، أترضى أن يزنيَ الناسُ بأختك؟**»، فقال: لا، قال: «**فكذلك الناس يكرهون**»، ثم قال: «**أترضى أن يزنيَ الناسُ بابنتك؟**»، فقال: لا، قال: «**فكذلك الناس يكرهون**»، فقال: يا رسول الله أُشهدك أنّني تُبْتُ من الزنا.

٣ ــ ولمّا كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وجنّة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، أجابه هرقل متسائلاً: «فأين النار؟»، فقال رسول الله ﷺ: «**سُبْحان الله! فأَيْنَ اللَّيل إذا جاء النَّهَار**»[1].

٤ ــ ونموذج رابع من رجاحة عقله ﷺ وسعة فهمه: ما رواه أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما: أنَّ النبي ﷺ بعث يوم بدر عليًّا كرَّم الله وجهه والزبير وسعد بن مالك في نفر إلى ماء بدر، يلتمسون له الخبر عن العدو ــ عددِهم وعُدَّتِهم ــ، فأصابوا راويةً لقريش فيها غلام

---

(١) نص الحديث بطوله في كتاب حياة الصحابة (١/ ١٣١)، ط. دار القلم ــ دمشق.

ـ أي عبد مملوك ـ لبني الحجاج، وغلام لبني العاص، فجعلوا يسألونهما عن عدد القوم المشركين، فطفِقَا يقولان: العدد كثير، فأَتَوْا بهما رسول الله ﷺ وهو يصلّي، فلمَّا سلَّم قال: «**أخبِراني عن قريش**»، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي تراه بالعُدْوة القُصوَى، فقال ﷺ: «**كم القوم؟**»، فقالا: كثير، فقال: «**مَا عِدَّتهم؟**»، قالا: ما ندري، فقال ﷺ: «**كم ينحرون ـ أي من الإبل ـ كلَّ يوم؟**»، فقالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال ﷺ لأصحابه: «**القوم ـ أي العدو ـ ما بين التسعمائة والألف**»، وكان الأمر كذلك.

* * *




بلاغته وفصاحته ﷺ




كان رسول الله ﷺ عَذْبَ الكلام حَسَنَه، إذا تكلّم أخذ بمجامع القلوب، وكأن النور يخرج من بين ثناياه:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثَّنِيَّتين، إذا تكلم رِيء كالنور يخرج من بين ثناياه. رواه الترمذي والدارمي والطبراني.

وعن أبي قِرْصافة أنه قال: لما بايعنا رسولَ الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي: يا بني ما رأينا مثلَ هذا الرجل أحسنَ منه وجهاً، ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأنَّ النور يخرج من فيه ﷺ.

يقول واصفه هند بن أبي هالة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكَلِمِ، كلامه فَصْل لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المَهين».

ومعنى «يتكلم بجوامع الكلم»، أي: بكلماتٍ قليلةِ الحروف، جامعةٍ لِمَعَانٍ كثيرةٍ: وفي حديث عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: «**يا أيها الناس! إني قد أعطيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصِرَ لِيَ اختصاراً ولقد أتيتكم بها** ـ أي الشريعة ـ **بيضاء نقيةً، فلا تَهَوَّكوا، ولا يضرَّنَّكم المتهوِّكون**. . . ».

وروى أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عمر: يا نبيَّ الله ما لَكَ أفْصَحَنَا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال: «**كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ، فجاءني بها جبريل، فحفظتها**».

قال الحافظ الزرقاني: بل زاد رسول الله ﷺ على ذلك، فكان يخاطب كلَّ ذي لغة بلغته، اتساعاً في الفصاحة. أي: واتساعاً في اطلاعه ﷺ على جميع لغات العرب، ولهجاتهم الفصيحة.

وفي المسند وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودّع فقال: «**أنا محمد النبي الأمي ـ قالها ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتحَ الكَلِم، وخواتمه، وجوامعه**. . . » الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله ما رأينا أفصح منك؟ فقال: «**إن الله تعالى لم يجعلني لَحّاناً،**

اختار لي خير الكلام: كتابَه القرآن». رواه الديلمي في الفردوس.

وبذلك يكون رسولنا محمد ﷺ أفصحَ الناس، وأبلغَهم لساناً، وأجملَهم وألينَهم كلاماً، أعطاه ربُّه جوامعَ الكلم، وبدائعَ الحِكَم، والمواعظ الحسنة، والأحاديث البيّنة، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله.

* * *




خاتَمُ النُّبُـوَّةِ بين كتفيه ﷺ



ومن شمائله ﷺ إكرامُ اللهِ تعالى نبيَّه محمداً ﷺ بخاتَم النبوة، وهو ــ كما قال العلماءُ ــ : «**بَضْعَةُ لَحْمٍ ناشزة ــ أي مرتفعة ــ في ظهره الشريف، عند ناغض كتفه اليسرى، عليها شعرات كأنها خِيلان. يزهو بالنور، وتعلوه المهابة، وينفح بالطيب**».

قال العلاَّمة القرطبي في شرحه على صحيح مسلم: «الأحاديث الثابتة دالّة على أنّ خاتَمَ النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر، عند كتفه الأيسر، إذا قُلِّل: قدر بيضة ــ أي: قيل فيه: قدر بيضة الحمام ــ ، وإذا كُثِّر: جُمْعُ الكفّ ــ أي: قيل فيه: بقدر جُمْعِ الكفِّ ــ ».

والحكمة في كون الخاتَم كان بين كَتِفَي الرسول ﷺ، فقد ذكر العلماء في ذلك وُجُوهاً من الحِكَم، أحسنُها ــ كما قال الحافظ ابن كثير ــ : ما ذكره ابن دحية رحمه الله تعالى: «إشارة إلى أنّه لا نبي بعدك يأتي من ورائك».

أمّا متى خُتِمَ له بخاتَم النبوة، فقد قيل: «عند شق صدره ﷺ وهو في بني سعد، لِمَا وَرَد في حديث عتبة بن عبد عند الإمام أحمد والطبراني. قال الحافظ الزرقاني: وقطع به القاضي عياض، وقال الحافظ ابن حجر: وهو الأثبت».

وفي الصحيحيْن ـ واللفظ للبخاري ـ: عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعَ، فمسح رسول الله ﷺ رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضَّأ، فشربتُ من وضوئه، ثم قمت خلفَ ظهره، فنظرت إلى خاتم النبوَّة بين كتفيه مثلَ زِرِّ الحَجَلة.

وروى الترمذي عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرجس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو في ناس من أصحابه، فدُرتُ هكذا من خلفه، فعرف الذي أُريد، فألقى الرداء عن ظهره ﷺ، فرأيت موضع الخاتم على كتفيه مثلَ الجُمْع، حولها خِيلانٌ كأنَّها ثآليل، فرجعتُ حتى استقبلته فقلتُ: غفرَ الله لك يا رسول الله! فقال: «وَلَكَ»، فقال القوم: استغفر لك رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، ولكم، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقد رواه مسلم وفيه: ثمَّ دُرْتُ خلفه ﷺ فنظرتُ إلى خاتَمِ النبوَّة، بين كتفيه عند ناغِض كتفه اليسرى، جُمْعاً، عليه خيلانٌ كأمثال الثآليل.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: رأيتُ خاتَماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنَّه بيضة حمام.

وروى الإمام أحمد والترمذي ـ واللفظ له ـ عن أبي نَضْرَة العَوفي قال: سألتُ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه عن خاتَم رسول الله ﷺ؟ فقال: كان في ظهره بَضْعَةً ناشزة ـ أي قطعة لحم مرتفعة ـ .

وروى الترمذي وغيره عن علْباء قال: حدَّثني عمرو بن أخْطب الأنصاري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا زيد أُدْنُ مني فَامْسَحْ ظهري**»، فمسحتُ ظهرَه، فوقعت أصابعي على الخاتَم. قلتُ ـ أي علباء ـ : وما الخاتَم؟ قال: شَعَراتٌ مجتمعات.

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثّاني

فضائل الرسول الكريمة ﷺ

الفصل الثالث

عناية الله المطلقة بالرسول ﷺ

الفصل الرابع

أوصاف الرّسول العظيمة ﷺ

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

كمالات الرّسول ﷺ

● ● ●

